من مشاكل التاريخ

مكتبة الأسكندرية

تأسيسها ورواية احراقها

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تنزع بعض الأقلام عن جادة الصواب إلى هوة التعرض والتشيع ، وتساق إليها بتهور عاطفة أصحابها ، وانحيازهم معها إذ يكتبون مائلين إلى الناحية التي تكمن فيها أغراضهم الذاتية ، وأهواؤهم القومية والعنصرية . والعلم متى اصطبغ بالتشيع ، وتلون بالتعرض ، ومال حيث تميل العاطفة ، فسد وصار باطلا منتحلا ، وهراء مبتذلا . ومن نكبة العلم أن تقوم فئة من المؤرخين المتشيعين ، تعلن عداءها للعرب ، وتروح بدافع هذه العداوة تشوه وجه تاريخهم المشرق بشتى الوسائل والسبل ؛ آناً بالوضع والاختلاق ، وحيناً بسوء التفسير والتأويل ، حتى نفثت فيه من سمومها كل ما ينتقص جليل قدرهم ، وينال جميل سمعتهم ، ويضع من عالى مكانتهم ، وذلك شفاء لغيظ نفوسها ، وإطفاء لحزازات صدورها . ومن هذه السموم والأباطيل ما يروج له بعضهم من أن الفاروق هو الذى أمر باحراق خزانة الاسكندرية على حين قد أثبت المنصفون أنها قد أحرقت قبل الفتح الاسلامى

تأسيس هذه المكتبة

لم يكد الاسكندر المقدونى يعبر البحر إلى آسيا ، ويمعن فى أقطارها فتحاً واستعماراً ، ويستولى فيها على إرث ملوك الفراعنة والبابليين والآشوريين والفرس ، حتى أخذ يستفيد من حضارات ومدنيات وعلوم وآداب هذه الأمم المغلوبة على أمرها ، فسعى فى نقل ما فى خزائنها إلى اللسان اليونانى والقبطى وأرسله إلى مصر . فقد ذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست ص ٣٢٩ ما نصه : « إن الأسكندر لما فتح عاصمة الفرس « اصطخر » نسخ جميع ما فى خزائنها من الكتب إلى اللسان اليونانى والقبطى ، وبعث بها وبسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى مصر »

وفى عام ٣٢٣ ق . م . توفى الاسكندر فكأنما كان موته ريحاً زعزعاً ؛ بدد شمل تلك الأمبراطورية التى أقام بنيانها ، وأسس دعائمها ، إذ اقتسمها قواده من بعده ، فاختل النظام ، واضطرب حبل الأمور ، وعمت الفوضى وكثرت المظالم ، فرحل معظم علماء اليونان عن بلادهم إلى مصر والشام والعراق ، حاملين معهم نتاج قرائحهم ، وخصب عقولهم ، فأنشأوا المدارس فى الاسكندرية [1] وانطاكية وبيروت ، وكانت الاسكندرية إذ ذاك تحت حكم البطالسة ، وكان سوتر أول ملوكهم عادلا محباً للعلم والعلماء ، فتوجهت إليها الأنظار ، وتوافدت عليها العلماء والأدباء والفلاسفة ، أفواجاً أفواجاً ، حتى غصت بهم مدارسها ودورها وأنديتها . فتقرب إليهم سوتر ، وأدناهم من بلاطه ، وأغدق عليهم منحه وعطاياه ، فكان ذلك مشجعاً لهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف ، فأصبحت الاسكندرية بفضل سياسته قبلة المتأدبين ، ومثابة العلماء يحجون إليها من مختلف الأقطار ، ويجدون فيها من أسباب اليسر والرخاء ما ينصرفون معه إلى مواصلة دروسهم والانقطاع إليها

ويروى لنا التاريخ أن خطيباً أثينياً اسمه ديمتريوس فاليروس كان قد أشار على سوتر بانشاء مكتبة يجمع إليها الكتب من مختلف أنحاء الدنيا ، فقبل مشورته ، وعهد إليه بذلك ، فأخذ فاليروس يجمع الكتب ويبتاعها من تجارها بغالى الأثمان ، فجمع منها فى مدة وجيزة (٥٤ ألف كتاب) ؛ فكون منها مكتبة الاسكندرية الشهيرة التى عبثت بها الأيام فيما عبثت ، وقد كانت تحتوى على الكتب التى بعث بها الاسكندر من اصطخر وغيرها إلى مصر ، ثم أنشأ سوتر المتحف أو النادى على شكل مدارس أوربا ، ويعرف فى التاريخ باسم مدرسة الاسكندرية الشهيرة [2]

وفى عام ٢٨٥ ق . م . تولى عرش البطالسة بطليموس فيلادلفوس ، وكان كسلفه محباً للعلم مشجعاً له ، فعمل على توسيع هذه المكتبة ، وأضاف إليها من كتب علوم اليونان وغيرهم ما لم يكن موجوداً فيها ، وابتاع لها الكتب التى كانت موجودة عند أرسطو ، وكثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء [3]

---

(١) راجع تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ١٢٥

(٢) راجع : التمدن الاسلامى لزيدان ج ٣

(٣) راجع : المصدر نفسه وتاريخ مصر الحديث

ومن المؤرخين من ينسب فكرة تأسيس هذه المكتبة إلى بطلوماوس لا إلى سوتو ، فقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست ص ٢٣٩ رواية عن إنشاء هذه المكتبة لرجل يدعى إسحق الراهب وإليك نصها : « إن بطلوماوس نيلاذلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلا يدعى بذميرة فجمع من ذلك على ما حكى أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتاباً ، وقال له : أيها الملك قد بقى فى الدنيا شىء كثير فى السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم »

وفى دار الكتب المصرية نسخة خطية من كتاب تراجم الحكماء لوزير حلب المعروف بالقفطى ، تحتوى على نص عبارة الفهرست عن تاريخ هذه المكتبة ومؤسسها . على أن الثابت من إجماع آراء المؤرخين والمستشرقين هو أن المؤسس لهذه المكتبة هو سوتر لا بطلوماوس ، ثم جاء هذا فعمل على توسيعها ، ثم خلفه بطليموس أورجينوس عام ٢٤٧ق . م . فأضاف إليها كثيراً من كتب الأدب والشعر والتمثيل مما وجده فى خزائن أثينا . ويروى أنه فرض على كل من يقيم فى الاسكندرية أو يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل كتاب يملكه ، فزهت الاسكندرية بذلك ونبغ فيها من العلماء عدد كبير[١]

وما زال أمر هذه المكتبة فى تقدم مطرد وازدياد عظيم ، فقد ذكر بطلر نقلا عن أميانوس مارسلينوس أنها بلغت سبعمائة ألف مجلد[٢] . وذكر العالم اكبرسيم أنها قد قسمت إلى شطرين ووضع الشطر الثانى منها فى معبد سيرابيس[٣]

وفى عام ٤٧ ق . م . حوصر « يوليوس » قيصر الروم بالاسكندرية فأحرقت جنوده قسما من هذه المكتبة عن غير قصد

ولما تولى الامبراطور تودوسيوس أصدر أمراً بتحريض جماعة من المتعصبين للمسيحية بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها[٤] فنال هذه المكتبة العظيمة من جراء ذلك ضرر جسيم

(١) راجع : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣
(٢) راجع : Butler, Alfred. J : The Arab Conquest of Eygpt. Oxford. 1902
(٣) راجع : Le Livre لأكبرسيم
(٤) راجع : الاسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلى

وفى عهد الأمبراطور طيودوس منعت الآداب والفلسفة اليونانية منعاً تاماً بأمر الأسقف تيوفيل ، وبأمره أيضاً دمرت السيرابيوم عام ٣٩١م . وبنى على أنقاضها كنيسة أو جملة كنائس ولم يبق من هذه الدار إلا بعض الجدران ، كما ذكر سيديو (ج ١ ص ١٥٥) ، وذكر أيضاً أن الكتب الوثنية التى كانت بالسيرابيوم قد أحرقت كلها ، وأما الكتب العلمية فانها حملت إلى القسطنطينية ثم تطاولت الأيدى إلى هيكل « سرابيس » فدمرته وأحرقته فى الحال هو وجميع محتوياته والكتب التى كانت فيه[١]

وهكذا تكون هذه المكتبة قد دمرت وأحرقت غير مرة بأمر قياصرة وبطارقة الروم . وقد تلاشت قبل الفتح الاسلامى بمدة طويلة . ومن المؤرخين من يزعم أنها أحرقت دفعة واحدة ، فقد ذكر بطلر نقلاً عن « ميانوس مارسلينوس » أن السبعمائة ألف مجلد التى كانت تحتوى عليها مكتبة الأسكندرية قد أتلفت إتلافاً تاماً حين حوصر يوليوس بالأسكندرية .[٢]

ومهما يكن من أمر الخلاف حول عدد مرات حريق هذه المكتبة العظيمة فان الآراء جميعها متفقة على أنها قد تلاشت قبل الفتح الاسلامى بقرنين ، وأنه لم يكن فى الأسكندرية حين الفتح العربى ما يحرق من الكتب .

وحوالى عام ٤١٤م . زار أورازيوس الأسكندرية وذكر أنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب ، وفى ذلك أكبر دليل على تبرئة العرب من هذه التهمة الشنيعة التى حملت عليهم زوراً .

شهادات المستشرقين

ونود بعد الذى فصلناه فى هذه الكلمة المجملة أن ندلى بشهادات بعض المحققين المستشرقين فى الموضوع :

قال مسبرك فى كتابه « الادعاءات الكاذبة » : « إن الافرنج هم الذين أحرقوا خزانة الأسكندرية[٣] » . وقال بونه موري فى كتابه الاسلام والنصرانية نقلاً عن فوت واهلويلر فى كتابهما « جنايات الأوربيين » إن تيوفيل هو الذى أحرق خزانة الأسكندرية لا المسلمين ، لأن الدين الاسلامى لا يبيح إحراق الكتب.

(١) تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن ابراهيم حسن .
(٢) تاريخ بطلر السابق وكتاب Babylon of Egypt
(٣) مبحث لسليم المغير فى النبراس ، والاسلام والحضارة العربية جزء ١ لمحمد كرد على .

وقال غربفيني من علماء الشرقيات في إيطاليا : بعد أن فتح عمرو بن العاص الأسكندرية مرت ستة قرون كاملة لم يسمع خلالها قول لمؤرخ مسلم أو غير مسلم يتعرض لاتهام عمرو بن العاص باحراق خزانة الأسكندرية . وينقض هـذه التهمة ما اشتهر به عمرو من سياسة اللين والتساهل التي جرى عليها وشهد له بها أشهر المؤرخين النصارى الذين كانوا في عهده ، كيوحنا النيقيوسي في كتابه تاريخ مصر الذي وضعه باللغة الحبشية القديمة .

وقال بونه موري أيضاً : يجب [١] أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الأسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد إعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم من أن يقدموا على عمل كهذا ، كما أنه معلوم أن قسما من تلك الخزانة كان قد احترق في أثناء ثورة الأسكندريين التي باد فيها أسطول قيصر ، وأن قسما آخر أحرقه النصارى في القرن السادس ، واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ولم يتعرضوا لهم في دينهم وعاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب البطريرك وبناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من رمي فتاة في النيل كل سنة التماساً لفيضانه

وقال أرنست رينان في خطاب له في المجمع العلمي الفرنسي :

... لست أعتقد أن عمراً هو الذي أحرق خزانة الاسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمن طويل [٢]

وذكر أكبرسيم في كتابه (Le livre) : لم تحرق مكتبة الاسكندرية التي قال بعضهم إنه كان فيها نحو سبعمائة ألف مجلد على يد الامام عمر ولا بأمره كما جاء في بعض المصادر . فان هذه الدعوى من الأغلاط التاريخية العظيمة ، إذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عند ما فتح العرب مدينة الاسكندرية

ومع كل هذه الشهادات ، وظهور الحق الجلي في هذه الناحلة التاريخية الكبرى ، فهناك من لا يزالون متمسكين بهذه الأكذوبة المختلقة على العرب ، ويستندون في تأييدها إلى أقوال هي في قوتها أوهى من خيوط العنكبوت ، وسنورد فيما يلي بعض هذه الأقوال والروايات وندلل على فسادها

يزعم بعض المؤرخين أن أول من لفق هذه الرواية على العرب هو أبو الفرج بن العبري في كتابه « تاريخ مختصر الدول » وروى ذلك العالم الأنجليزي جيبون [١] في تاريخ سقوط دولة الرومان قال : إن هذه الفرية على المسلمين قد لفقها أبو الفرج العبري في تاريخه مختصر الدول ، وذلك بعد الأسلام بنحو ستة قرون ، ولم يتعرض قبله أحد لذكرها من المؤرخين » وذكر أرفنج أن هذه الفرية لم يكن لها ذكر قبل ترجمة مختصر الدول إلى اللاتينية . على أننا لسنا نعتقد بصحة هذا الزعم ، إذ تبين لنا أن أول من نسب هـذه التهمة إلى عمرو بن العاص والفاروق هو عبد اللطيف البغدادي إذ ذكرها في كتابه « الأفادة والأعتبار ص ٢٨ » وكان قد ألفه قبل ولادة أبي فرج عام ١٢٢٦ م .

رواية عبد اللطيف :

ففي أواخر القرن السادس للهجرة زار عبد اللطيف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها وذكر إحراق العرب لهذه المكتبة قبل أن يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة وإليك [٢] نص عبارته : « ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها . وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التي بناها الأسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنه »

والظاهر أن هذه العبارة قد جاءت في كلام البغدادي عرضاً عن غير قصد ، ومما يطعن فيها أن يذكرها بعد ستة قرون ولا يدل على المصدر الذي نقلها عنه ، والأغرب ألا يذكرها مؤرخان مسيحيان معاصران من مصر ، فقد كتب أفتيكيوس بطريرك الأسكندرية كلاماً مستفيضاً عن استيلاء المسلمين على مصر ولم يشر إلى هذه الحادثة قط ، وكذلك أوتينموس ، فانه لم يشر إليها أيضاً ، ومثله المؤرخ « يوحنا أسقف نيقوس » وتاريخه مصدر يركن إليه .

(البقية في العدد القادم) خليل جمعة الطوال

(١) G. Bonet Maury : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique

وكتاب حاضر العالم الاسلامي تعريب شكيب أرسلان

(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي

(١) Gibbon, Edward : The History of the decline and Fall of the Roman Empire.

(٢) الأفادة والاعتبار ص٢٨